الدكتور
عمر عبد السلام تدمري
أستاذ التاريخ الإسلامي . رئيس قسم الآثار
الجامعة اللبنانية . طرابلس

تاريخ طرابلس

السياسي والحضاري عبر العصور

عصر دولة المماليك - الجزء الثاني

(من الفتح المنصوري ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م.
حتى سقوط دولة المماليك ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م.)

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً: موكباني - بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً - موكياني بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨١

كلمة المؤلف

منذ سنتين تماماً صدر الجزء الأول من هذا الكتاب (١٩٧٨)، وخلال هاتين السنتين كنت بين يوم وآخر أجد من يسأل عن موعد صدور الجزء الثاني منه، وكان السؤال - ولو مجرَّداً - يجد وقعاً طيباً في نفسي، ويحفزني الى العمل على إصدار الجزء الثاني في مدة قريبة استجابة لرغبة السادة القراء الذين قابلوا «سلسلة تاريخ طرابلس الحضاري» التي بدأتها بصدور الكتاب الأول منها سنة ١٩٧٣، بكل التشجيع والتقدير.

لقد كان السؤال، عن موعد صدور الجزء الثاني يملأني غبطة ويغمرني سعادة، إذ كنت أعرف بداهة، أن سائلي الفاضل قد اطّلع على الجزء الأول من تاريخ طرابلس الفيحاء، ويودّ أن يطلّع على الجزء الثاني من تاريخها، وليست هذه الرغبة الصادقة سوى دليل على الارتياح والركون من قِبَل القارئ الكريم الى ثقة المعلومات والوقائع التاريخية التي يقرأها. وليس في عالم الفكر والتأليف أسمى من أن ينال المؤلف أو الباحث ثقة القارئ واحترامه.

فإلى القارئ الطرابلسي - خاصة -، وإلى قراء العربية في الوطن العربي وخارجه - عموماً - أهدي هذا الكتاب.

د. عمر عبد السلام تدمري

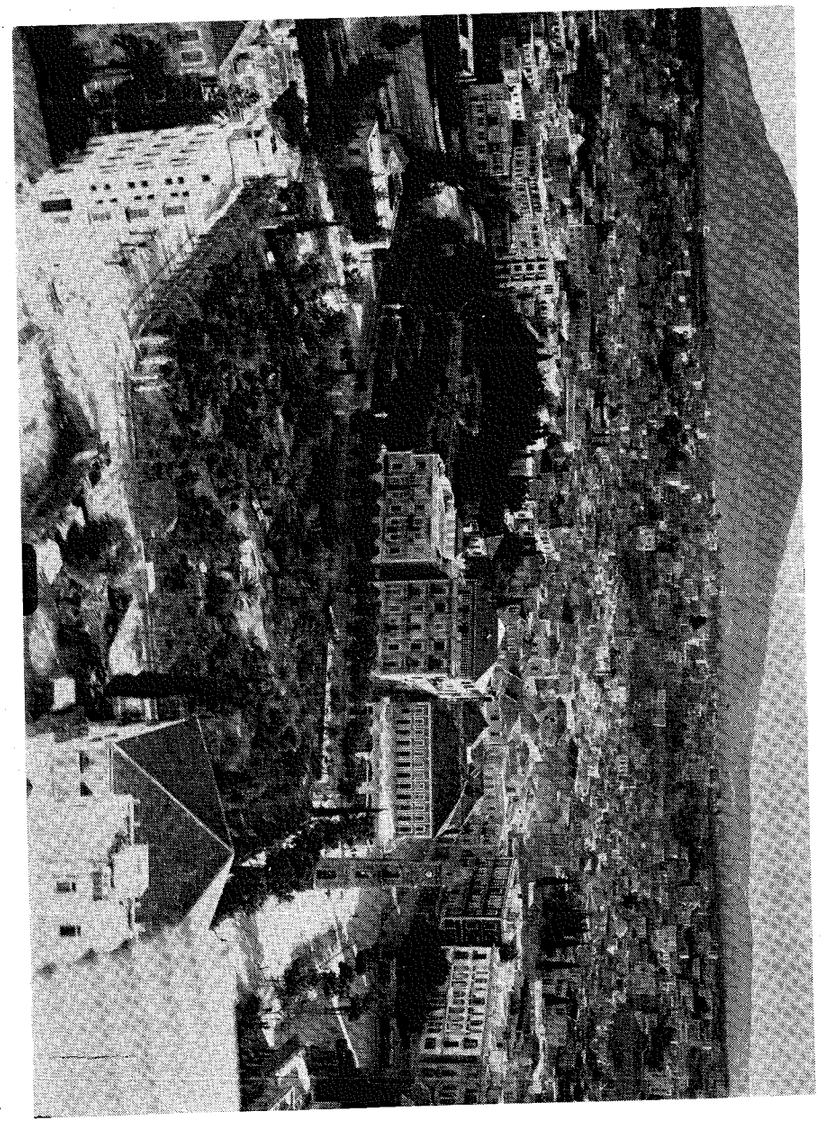

طرابلس سنة ١٩٣٦ «من أرشيف المعهد الفرنسي للآثار في بيروت»

مقدمة

يتناول هذا الجزء: تاريخ مدينة طرابلس في عصر المماليك، وهو تاريخ يزيد على القرنين وربع القرن من الزمان. ويتألف من قسمين: سياسي وحضاري، يشكّلان سبعة فصول. أوّلها يتحدث عن طرابلس كعاصمة لنيابة السلطنة التي تمتد حدودها من نواحي اللاذقية شمالاً الى العاقورة جنوباً، وتنظيماتها الإدارية، وتقسيماتها السياسية، وتحديد الأعمال والأقاليم والنيابات المضافة الى عاصمة النيابة، مع بيان الوظائف الديوانية والإدارية والعسكرية والدينية. ومع هذا الفصل: جدول بأسماء نواب السلطنة الذين تعاقبوا على حكم المدينة. وجدول بأسماء قضاتها: الشافعيين، والأحناف، والمالكيين، والحنابلة. وجدول بأسماء كبار موظفي السلطنة من الأمراء والقادة العسكريين، والحُجّاب، والنُّظّار، وكُتّاب الدواوين، وبيان مُدَد ولاية كلٍّ منهم، أو مدة وظيفته. مع الاهتمام بالإشارة الى أكبر عدد ممكن من المصادر والمراجع التي تُترجم لكل واحدٍ من هؤلاء الأعلام، ليسهُل على القارئ أو الباحث العودة إليها إذا أراد التوسع في الترجمة لأحدهم.

ويبدأ التاريخ النضالي لطرابلس مع بداية الفصل الثاني الذي يتناول علاقاتها مع القوى الداخلية ضمن حدود النيابة، من نُصَيريّة، ونصارى، واسماعيلية.. ومع القوى الخارجية من الأرمن، والتتار. وفي هذا الفصل تحليل ووصف مُسْهَبَانْ لحملات المماليك على جبال لبنان، إعتماداً على المصادر المعاصرة لتلك الحملات. وإظهار دور طرابلس بإخضاع مملكة أرمينية الصغرى وضمّها الى دولة المماليك، والتصدّي للهجمة التتارية الواسعة التي اكتسحت بلاد الشام.

ويختص الفصل الثالث بنضال طرابلس ضد الإفرنج، ودورها في إخراج بقايا الصليبيين من الشام، وفتح جزيرة أرواد، وصمودها أمام غارات القبارصة، وتصدّيها لغزوة ملك قبرص «بطرس دي لوزنيان» سنة ٧٦٩ هـ. / ١٣٦٧ م. وإلحاق الهزيمة بأسطوله. وصمودها أمام غارات إفرنج جنوا وبيزا وكتالونيا والبندقية.. ودورها كقاعدة ومنطَلَق للأسطول الإسلامي في فتح جزيرة قبرص، ثم غزو جزيرة رودس.

ويأتي الفصل الرابع ليتناول أحداثاً على هامش تاريخ طرابلس متتبّعاً الفِتَن والقلاقل والاضطرابات التي شهدتها طوال عصر المماليك، وصراعات أمرائها مع غيرهم من السلاطين، والأمراء في مصر والشام لبسط نفوذهم على المدينة ونيابتها. كما يتتبّع النكبات التي ضربتها من زلازل وفيضانات وحرائق ورياح عاصفة مدمّرة، فضلاً عن بعض الحوادث الطريفة النادرة. وينتهي الفصل بتحوّل طرابلس الى ولاية عثمانية بعد سقوط دولة المماليك.

أما القسم الحضاري، فيبدأ بالفصل الخامس والحديث عن بناء مدينة طرابلس المستَجَدَّة، بأسواقها، وميادينها، وأزقّتها، ودروبها، ودهاليزها، وبوّاباتها، وقياسرها، وعمارتها الدينية والمدنية والحربية، من مساجد، ومدارس، وزوايا، وتكايا، وخانقاه، ورباط، وأضرحة، وحمّامات، وخانات، وأبراج، وسُبُل مياه، وبرَك، وآثار قناطر وعقود وأقبية، ونقوش، وكتابات تاريخية، وتحديد مواقعها وتواريخها ووصفها، والتعريف بأصحابها، فضلاً عن القلعة أضخم وأهم معالمها العمرانية. كل ذلك من خلال خريطة توضيحية تساعد كل سائح أو متجوّل أو باحث على الإحاطة ببعض ما تركه الأجداد من آثار اندثر بعضها، وبقي البعض الآخر ماثلاً حتى الآن، ليشهد بضخامة تراث المماليك. ولا غرو، فطرابلس القائمة الآن هي وليدة عبقريتهم وتخطيط مهندسيهم الذين خلّدوا بصماتهم الواضحة على معالمها المعمارية.

وفي الفصل السادس، نتعرّف على الحياة الاقتصادية التي شهدتها طرابلس، ليس في عصر المماليك، فحسب، بل منذ تأسيسها الفينيقي، وفي عرض متتابع العصور للدلالة على أهمية موقع المدينة في حياة أهلها الزراعية والصناعية، وعلائقهم التجارية مع دول الشرق والغرب، والتعرّف على أهم محاصيلها الزراعية، وأشهر صناعاتها الثقيلة والخفيفة، ونشاط أهلها التجاري براً وبحراً. مع تلمّس بعض النماذج لأنواع الضرائب والرسوم والعائدات التي كانت تُحصَّل في طرابلس ونيابتها. والوقوف على أنواع النقود التي ضربها سلاطين المماليك بطرابلس. ونماذج مصوّرة لها.

والفصل السابع والأخير، يستعرض الحياة العلمية، و يعرّف بعلماء طرابلس من المصنّفين والأدباء والشعراء، المهتمين بتأليف الكتب ونسخها، أو وضع الشروحات واختصار المصنّفات والتذييل عليها. وحركة العلماء من طرابلس وإليها، ودورها كملتقى للعلماء والأعلام المشاهير الذين نزلوها وحضروا مجالس علمائها من الرجال والنساء، أو

عقدوا حلقات العلم فيها. والتعريف بالمشاهير من الأعلام الطرابلسيين الذين تقلّبوا في المناصب العلمية والدينية والديوانية الرفيعة في مصر والشام خلال ذلك العصر.

وعقب الفصول السبعة، تأتي ملاحق الجزء التي بلغت (٤٨) ملحقاً، كلها نصوص خاصة بالعصر الذي يدور حوله البحث، وهي بين مُلحق قصير ومتوسط ومطوّل، منه ما هو مطبوع، ومنه ما لا يزال مخطوطاً ننشره لأول مرة، ما بين نصّ لأحد الرحّالة أو الجغرافيين أو المؤرخين الذين يصفون طرابلس وأعمالها وحدود مملكتها، أو نصوص مراسيم صادرة عن السلاطين والأمراء لأصحاب المناصب الهامة في المدينة، أو نصوص لوقائع وحوادث هامة في تاريخ المدينة، أو نص مكاتبة سلطانية، أو وقفية، أو مرسوم بالحثّ على الجهاد، أو تنظيم للحياة الضريبية، وغير ذلك. وهي على كثرتها تشغل حيّزاً لا بأس به، ولكن أهميّتها لا تخفى على الباحثين والمهتمّين بدراسة هذا العصر.

أما مادّة هذه الدراسة فقد اعتَمَدَتْ على نيّفٍ وثلاثمائة مصدرٍ ومرجعٍ قديم وحديث، ما بين عربي وأجنبي، منها نحو خمسين مصنّفاً مخطوطاً. وتخلّل صفحات هذا الجزء بعض الخرائط، وعدد كبير من الصور النادرة والحديثة، واللوحات التاريخية لرسّامين وفنّانين أوروبيين أُعجبوا بمعالم طرابلس، ومناظرها، فخلّدوها في لوحات جميلة، حصلنا عليها من كتب أو مجلات أشرنا إليها في مواضعها. وفي هذا المجال لا يفوتني أن أنوّه بالسادة: الدكتور حازم فنج، والدكتور حسان سركيس، والفنان فؤاد نجم، والسيد محمد رهيف كنج، على ما قدّموه من صور ولوحات، زيّنت هذا الجزء. وأخص الدكتور الشيخ محمد الخطيب بالشكر على مجموعة النقود المماليكية التي قمت بتصويرها، وتعرّفنا منها على نماذج من النقود التي ضُربت بطرابلس.

وأخيراً أتوجه بالشكر للمسؤولين في المؤسسة العربية للدراسات والنشر على ما بذلوه من عناية في إخراج هذا الكتاب.

وآخر القول: «ربِّ زدني علماً»

طرابلس الشام - في ٢٢ ذو القعدة ١٤٠٠ هـ.

١ تشرين الأول ١٩٨٠ م.

د. عمر عبد السلام تدمري

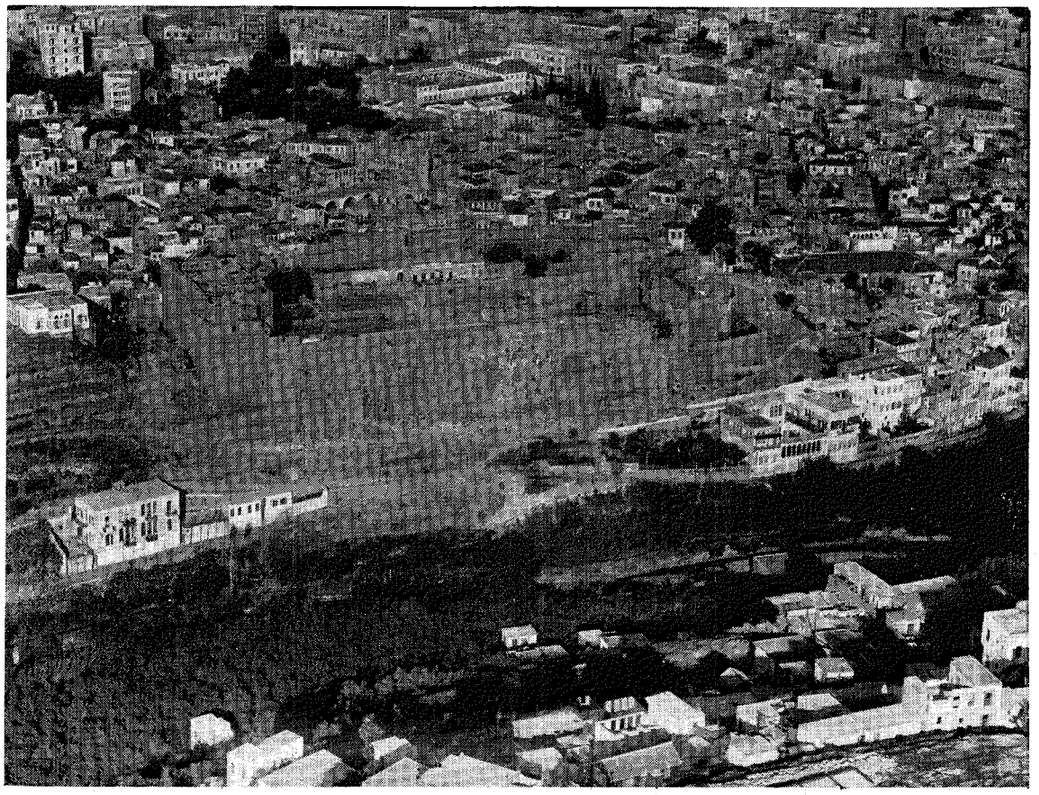

طرابلس في ١٩٣٣/١١/٢٠

القسم السياسي